

المدرسة النحوية الأندلسية بين الإنكار والإثبات

حليمة الخيروني
جامعة محمد الأول بالمغرب

الملخص:

لا يخفى على أحد مدى ضلوع الأندلسيين في علوم شتى، ولعله يأتي في مقدمة هذه العلوم التي بزوا فيها أقرانهم المشاركة، علم النحو، على أن هذه التسمية قد كانت تجمع بين علم الصرف وعلم النحو بالمعنى الحالي.

غير أن الغريب في الأمر أنه لم يُشهد لهم من بعض أعلام اللغة، بتفردهم بمدرسة نحوية على غرار بقية المدارس؛ كالمدرسة البصرية، ونظيراتها الكوفية، والبغدادية...

لذلك، فقد آليت أن أتبع هذه المسألة بالبحث والتقصي، عازمة على إنصاف شيوخنا الأندلسيين، وإثبات أن جهودهم العلمية في باب النحو، تستحق أن تجمع تحت اسم "مدرسة نحوية". وأول ما بدأت به هو الإشارة إلى أن المدرسة النحوية الأندلسية قد ظلت زمنا غير يسير وهي بين الإنكار والإثبات، من خلال التداول في مجموعة من آراء فقهاء اللغة القدامى والمحدثين على السواء. وقد خرجت بخلاصة مفادها صحة وجود مذهب أندلسي في النحو العربي، واستقلالهم عن المشاركة في قضايا لغوية تجديدية عديدة. ويأتي في مقدمة هؤلاء اللغويين المحدثين ابن مالك وأبو حيان الأندلسي، وواقع الأمر أن هذين الاسمين كانا محل نقاش من العديد من علماء اللغة المحدثين؛ كالكتور سعيد الأفغاني، الذي حاول بشتى السبل نفي أندلسية هذين العلمين؛ فحلا له أن يسوق مجموعة من الأدلة الداعمة لصحة وجهة نظره. وقد حاولت عن

طريق الحجة والبرهان إبطال هذه المزاعم والوصول إلى إثبات صحة أندلسية هذين الرجلين، ومنه تأكيد وجود مدرسة أندلسية في النحو العربي.

Abstract

No one can deny the flourish of Andalusians in a variety of sciences. And perhaps one of the fore sciences in which their correspondent orientalist prospered was syntax which used to combine morphology and syntax in the current sense. Strangely, however, Andalusians were not seen by some well-known linguists as pioneers of language, known by a school of syntax like other schools, for instance, Basri School and its counterparts the Kufic and Baghdadi. Consequently, I undertook this issue searching and scrutinizing, resolute to defend our Andalusian scholars and their scientific efforts in syntax, which deserved to be gathered under a school of syntax. First of all, I began with pointing out that the Andalusian school of syntax had been for a long time between denial and confirmation. Throughout a debate held among a range of opinions of old and modern linguists as well, the conclusion was the valid existence of the Andalusian doctrine in Arabic syntax, and its independence from the orientalist in many innovative linguistic issues. Moreover, the prominent modern linguists that were put forward were Jalal Ben Malek and Abu Hayan Al Andalusi. Actually, those two names were discussed by numerous modern linguists such as Dr. Said al-Afghani - God bless him - who tried in various ways to deny the Andalusian authenticity of these two authorities. He publicized several arguments to support his point of view. I have tried by argument and proof to invalidate this claim and to arrive at the Andalusian authenticity of these two men, confirming the existence of an Andalusian school in Arabic syntax.

نص المداخلة كاملة:

قد يبدو غريبا أن نتحدث عن صحة وجود مدرسة نحوية أندلسية ما دمنا قد دأبنا على ترديد هذه التسمية وعهدناها مسلمة من المسلمات المفروغ منها، ولكن سرعان ما ستزول هذه الغرابة حينما نعلم أن فريقا لا يستهان به من اللغويين المشاركة ينكرون هذه التسمية، ويفندون أن تصل جهود النحاة الأندلسيين خاصة والمغاربة بشكل عام إلى درجة أن تُحتضن تحت اسم "مدرسة".

فما حقيقة هذه المسألة؟

صحيح أن القدماء لم يطلقوا على مسائل الخلاف في النحو القديم اسم " مدرسة " حيث لم نسمع قط أنهم رددوا في مصنفاتهم مصطلح " المدرسة البصرية " أو " المدرسة الكوفية " أو " المدرسة البغدادية "، ولكننا وجدناهم في العديد من المرات يذكرون مذهب سيويوه ومذهب الأخفش ومذهب الفراء وغير ذلك. فهل تُراهم كانوا يعنون ب " المذهب " ما يدل عليه مصطلح " المدرسة " أم شيئاً آخر؟

* مفهوم " المدرسة النحوية ":

تعريف " المدرسة " لغة واصطلاحاً:

جاء في " لسان العرب " أن المدلول اللغوي لكلمة " مدرسة " هو: " الموضوع الذي يُدرس فيه، والمُدْرَسُ هو الكتاب... والمدارس: الذي قرأ الكتب ودرسها.. والمدراس: البيت الذي يُدرس فيه القرآن... ومُفْعَالٌ من أبنية المبالغة، وأصل الدراسة: الرياضة والتعهد للشيء " ^١.

وجاء في موضع آخر أن " المدرسة " اسم مكان على وزن " مَفْعَلَةٌ " لما يكثر فيه الدرس، وفرق ما بين " المفعلة " و " المَفْعَل " أن كليهما صيغة اسم للمكان وللزمان الذي يكون فيه الحدث أو الشيء، فإذا أريد المعنى من دون إرادة الكثرة أو التكرار صيغ على " مفعَل " للثلاثي إلا إذا كان الفعل الثلاثي مكسور العين في المضارع، أو مثلاً واوياً صحيح الآخر فيصاغ عندئذ " مفعِل " ^٢ أما إذا قصد التكرار والكثرة فيصاغ على " مَفْعَلَةٌ " وهكذا يُقال " مجزرة " لمكان جزر الحيوانات، ويقال " مصبغة " للمكان الذي يُمارس فيه الصبغ

^١ - ابن منظور، لسان العرب، شرح عبد الله علي كبير وآخرين. (درس). طبعة دار صادر. بيروت. الطبعة الثانية.

١٩٩٠. ج ١٠. ص ٣٠٦.

^٢ - الشيخ أحمد الحملاوي، شذا العرف في فن الصرف، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر. الطبعة ١٦. ١٩٦٥.

لتكرر ذلك ودوامه وكثرته، ويقال " مأسدة " للمكان الذي تكثر فيه الأسود، وهكذا جاءت كلمة " مطبعة " و" مكتبة "٣، فلفظ " المدرسة " إذن يُطلق على المكان الذي يكثر فيه التدريس.

أما المدلول الاصطلاحي فهو متنوع:

- دار للتعليم الجماعي العام أو الاختصاص، أو مكان للتدريب على هواية أو فن ك"مدرسة رسم" مثلا، وهي جماعة من المفكرين أو العلماء أو الأدباء ذات اتجاه واحد ك" المدرسة الإبداعية " و" المدرسة النحوية ".

-أو هي مثال يُحتذى أو قُدوة " مدرسة في الأخلاق ".

-وهناك أيضا ما يُعرف بالمدرسة القديمة، وهو لفظ يُطلق على المحافظين أو المتمسكين بالقديم، أما المدرسة المهنية... فهي تُعدّ التلاميذ لممارسة مهنة من المهن^٤.

و" المدرسة " في رأي أحمد مكي الأنصاري ما هي إلا " اتجاه له خصائص مميزة ينادي بها فرد أو جماعة من الناس ثم يعتنقها آخرون "٥.

وقال جوتولد فايل إنها تعني : " الاشتراك في وجهة النظر الذي يؤلف الجهة العلمية، ويربط العلماء بعضهم ببعض على رأي واحد^٦.

^٣ - نفسه، ص ٨٩.

^٤ - يراجع " أثر المدرسة البصرية في النحو الأندلسي " رسالة دكتوراه. منى أحمد الحسين كرار. ٢٠١٢. ص ٧.

^٥ - خديجة الحديثي، المدارس النحوية، دار الأمل، الطبعة الثالثة، ٢٠٠١، ص ١٦.

^٦ - أحمد مكي الأنصاري، أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب. القاهرة.

١٩٦٤. ص ٢٥٢. أو " المدارس النحوية " لخديجة الحديثي، ص ١٦.

وغير خاف علينا ما حفلت به كتبنا التراثية من أسماء المدارس كالمدرسة المستنصرية والمدرسة النظامية في بغداد، ومدارس بلاد الشام ومدارس مصر وغير ذلك. وهذه المدارس مدارس حقيقية ينتسب إليها طلاب العلم فيدرسون العلوم المختلفة^٧.

وجدير بالذكر أن هذا المصطلح قد شرع في استخدامه بعض المحدثين اقتداءً بجماعة من الأوربيين الذين قصدوا به الاتجاهات والمناهج العلمية المختلفة، وهكذا بدأنا نسمع " مدرسة البصرة " وتقابلها " مدرسة الكوفة ".

وهكذا نخلص إلى أن مفهوم " المدرسة النحوية " عند المحدثين يشير إلى اتجاهات خاصة بدراسة النحو العربي، اختلفت في مناهجها في بعض المسائل النحوية الفرعية وارتبط كل اتجاه منها بإقليم عربي معين.

ويمكن في يُسر للناظر في كتبهم أن يلحظ كيف أنهم قد رحّبوا بلفظ " مدرسة " في كتبهم أيما ترحيب، ووظفوه في مادة الخلاف النحوي، كما استعاروه في مسائل أدبية أخرى، فأطلقوا على بناء القصيدة عند أوس بن حجر - على سبيل المثال - بناء خاصا يختلف عما عند غيره من الجاهليين، واستمر هذا النهج في الاصطلاح عند بعض الباحثين، فكانت " مدرسة الديوان "، وهكذا قيل عن الأدب في المهجر على الرغم من الاختلاف الكبير بين أدباء المهجر في منازعهم الفكرية^٨.

^٧ - يُنظر " المدارس النحوية بين التصور والتصديق والسؤال الكبير "، د عبد الأمير محمد أمين الورد، المكتبة العصرية، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، ص ٦.

^٨ - عبده الراجحي، دروس في المذاهب النحوية، دار المعرفة، الإسكندرية، ١٩٩٢، ص ٢١.

ولقد مضى في هذا الطريق جمهرة غفيرة من الباحثين المحدثين، كان في مقدمتهم المستشرقون حيث إن أول من استخدمه جوتولد فايل عندما أورد في مقدمة كتاب " الإنصاف " تعبير " المدرسة البصرية " و " المدرسة الكوفية " .^٩

ولقد تبعه في ذلك كارل بروكلمان حيث وظّف كلمة " مدرسة " في كتابه " تاريخ الأدب العربي " فقال: " وقد قسّم علماء العربية مذاهب النحاة إلى ثلاث مدارس: البصريون والكوفيون ومن مزج المذهبين من علماء بغداد وسنحتفظ نحن أيضا بهذا التقسيم " .^{١٠}

أما ثالثهم فهو الدكتور مهدي المخزومي حيث عنون كتابه ب " مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو " .^{١١} ورابعهم الدكتور شوقي ضيف إذ ألّف كتاب " المدارس النحوية " .^{١٢}

وخامسهم الدكتور عبد الرحمن السيد صاحب كتاب " مدرسة البصرة النحوية، نشأتها وتطورها " .^{١٣}

ثم تليهم الدكتورة خديجة الحديثي بكتابتها " المدارس النحوية " .^{١٤} فالدكتور محمود حسيني محمود إذ ألّف كتابا عنونه ب " المدرسة البغدادية في تاريخ النحو العربي " .^{١٥}

^٩ - كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي، ج ٢، ص ١٢٧، وكان طبع كتاب " الإنصاف " وتقويم فايل له في ليدن سنة ١٩١٣، وانظر " المدارس النحوية: أسطورة وواقع "، إبراهيم السامرائي، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٩٨٧، ص ١٣٩.

^{١٠} - تاريخ الأدب العربي، ج ٢، ص ١٢٤.

^{١١} - مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو. طبعة بغداد. ١٩٥٥.

^{١٢} - شوقي ضيف، المدارس النحوية، دار المعارف، القاهرة، الطبعة التاسعة، ٢٠٠٥.

^{١٣} - عبد الرحمن السيد، مدرسة البصرة النحوية، نشأتها وتطورها، دار المعارف، مصر، دون تاريخ.

^{١٤} - خديجة الحديثي، المدارس النحوية.

^{١٥} - محمود حسيني محمود، المدرسة البغدادية في تاريخ النحو العربي، مؤسسة الرسالة، بيروت، دار عمار، الطبعة الأولى،

وبتصفحنا لهذه الأعمال نجد أن أصحابها يستعملون كلمتي " المدرسة " و " المذهب " بمعنى واحد^{١٦}، يؤكد ذلك ما أفادت به الدكتورة خديجة الحديشي مثبتة أن " المدرسة " بهذا الاستعمال تؤدي إلى المعنى الذي تؤديه كلمة " مذهب " المعروفة في الدراسات الإسلامية وتعمل معناها المعروف في لغة العرب؛ ف " المذهب " في اللغة المعتقد الذي يُذهب إليه، والطريقة والأصل^{١٧} وأنا عندما نقول: " مذهب مالك " أو " مذهب الشافعي " أو غيرهما، فإنما نعني مجموعة الأحكام والآراء الفقهية التي قال بها كل منهما، وتابعه عليها جماعة من الناس والتزموا بها وطبقوها^{١٨}.

والواقع أن هذا الاستعمال قد عُرف في مجال النحو عند الأقدمين أيضا؛ فها هو أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي (٣٨٩ هـ) ترد عنده لأول مرة لفظة " مذهب " في قوله " مذهب البصريين " و " مذهب الكوفيين " ^{١٩}.

كما أورد كلمة " المذهبين " أول من أوردها أبو الفرج محمد بن إسحاق بن محمد بن إسحاق ابن إبراهيم الموصلبي البغدادي المشتهر ب " ابن النديم " (٣٨٥ هـ) في كتابه " الفهرست " في كلامه على أسماء جماعة من علماء النحويين ممن خلط " المذهبين " ^{٢٠}.

^{١٦} - عُد مثلا إلى الكلام السابق لكارل بروكلمان.

^{١٧} - القاموس المحيط للفيروزابادي. تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة. مادة " ذهب ". بيروت. الطبعة الثالثة. ٢٠٠٩. ص ٨٦.

^{١٨} - خديجة الحديشي، المدارس النحوية. ص ١٦-١٧.

^{١٩} - الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين. تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم. دار المعارف. القاهرة. ١٩٨٤. ص ١٥٣.

^{٢٠} - ابن النديم، الفهرست، المطبعة الرحمانية، القاهرة، الطبعة الثالثة، دون تاريخ، ص ١٢١.

وأورد كمال الدين أبو البركات عبد الرحمن بن محمد بن أبي الوفاء ابن الأنباري (٥٧٧ هـ) في كتابه " نزهة الألباء في طبقات الأدباء " ٢١ كلمة " مذهب " فقال مثلاً: " كان قِيماً بمذهب البصريين والكوفيين " ٢٢.

وعليه، هل يحق لنا الآن أن نتحدث عن مذهب أندلسي في النحو العربي؟

وجود مذهب أندلسي في النحو العربي:

إن انطلقنا من تقسيم المدارس النحوية تقسيماً جغرافياً، كان من اليسير إثبات وجود مذهب أندلسي في النحو العربي. والحقيقة أن سلفنا الصالح ٢٣ قد أجاد في الرد على كل من حوّلت له نفسه إنكار حقيقة واضحة وضوح الشمس؛ وهي تفرد الأندلسيين بمذهب نحوي له سماته ومناهجه وخصائصه المميزة.

ولعل أقرب الأمثلة المثبتة لاهتمام الأندلسيين بعلم النحو ما قاله عنهم ابن سعيد: " والنحو عندهم في نهاية من علو الطبقة حتى إنهم في هذا العصر فيه كأصحاب عصر الخليل وسيبويه، ولا يزداد مع هرم الزمان إلا جدة وهم كثيرو البحث فيه وحفظ مذاهبه كمذاهب الفقه، وكل عالم في أي علم لا يكون متمكناً من علم النحو بحيث لا تخفى عليه الدقائق فليس عندهم بمستحق للتمييز، ولا سالم من الازدراء " ٢٤.

٢١ - الأنباري، نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق د. إبراهيم السامرائي، الطبعة الأولى، مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٥٩.

٢٢ - نفسه، ص ١٦٢.

٢٣ - انظر مثلاً " الاتجاهات النحوية في الأندلس "، د. أمين السيد، دار العلوم، ص ٥٢٤ - ٥٣٥، و" خصائص مذهب الأندلس النحوي خلال القرن السابع الهجري "، د. عبد القادر رحيم الهيبي، منشورات جامعة قان يونس، بنغازي، الطبعة الثانية، ١٩٩٣، ص ٤٧.

٢٤ - المقرئ، نفح الطيب، تحقيق إحسان عباس، دار الأبحاث، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨، ج ١، ص ٢٢١.

ولقد اتضحت هذه العناية في ما أسدوه للنحو العربي من دراسات وشروحات وتعليقات وإضافات واستدراكات... وغير ذلك.

ولقد رأى بعض الدارسين ألا حاجة إلى إعادة الحديث في ذلك النقاش الذي دار بين المثبتين والمنكرين لوجود مذهب نحوي أندلسي ما دامت الدراسات المنجزة بعد ذلك النقاش - كدراسة الهيتمي حول " خصائص مذهب الأندلس النحوي خلال القرن السابع الهجري " - قد سارت في اتجاه إثبات المذهب الأندلسي وفي اتجاه إبراز سماته وخصوصياته^{٢٥}، ولكنني أعتقد بأنه حريٌّ بنا نحن المغاربة أن نكون سابقين إلى إثبات ذلك، وألا نكتفي بدراسة واحدة أو اثنتين، وألا نترك الكلمة للمشاركة فقط، وأن نُبطل كل ادعاء وإد من قريب أو بعيد.

والحال أن القدماء قد سبقونا إلى إثبات مذهب أندلسي في النحو العربي؛ فهذا هو أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي (٣٨٩ هـ) يرتب النحاة في كتابه " طبقات النحويين واللغويين " بحسب بلدانهم وبحسب القدم الزمني؛ فنجده يتحدث عن البصريين، والكوفيين، فالمصريين، فالقرويين، فالأندلسيين. وها هو أبو حيان يقول في معرض حديثه عن قضية الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف: " على أن الواضعين الأوّلين لعلم النحو المستقرّين الأحكام من لسان العرب، والمستنبطين المقاييس، كأبي عمرو بن العلاء، وعيسى بن عمر، والخليل، وسيبويه من أئمة البصريين، وكمعاذ والكسائي والفراء، وعلي بن المبارك الأحمر، وهشام الضرير من أئمة

^{٢٥} - انظر ما أفاد به د. مصطفى بن حمزة في مقدمة تحقيقه لكتاب " الحلية " لابن عنتر، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥. ج ١، ص ٦٦.

الكوفيين، لم يفعلوا وتبعهم على هذا المسلك المتأخرون من الفرقتين وغيرهم من نخاة الأقاليم، كنجاة بغداد وأهل الأندلس^{٢٦}.

وواضح من هذا الكلام أن أبا حيان يشهد لأهل الأندلس بتفردهم النحوي، وليس ذلك فحسب، بل لقد ألف كتابا عن نجاة الأندلس، وهو كتاب " تحفة الندس في نجاة الأندلس"^{٢٧}، غير أنه لم يصل إلينا منه شيء، فما للمنكرين، ما لهم كيف يحكمون!؟

كما أننا نجد ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) يقر بوجود مذهب نحوي أندلسي، وذلك حين حديثه عن علم العربية قائلا: " والتأليف في هذا الفن كثيرة، وطرق التعليم مختلفة بين البصريين والكوفيين والبغداديين والأندلسيين"^{٢٨}.

ويذهب المذهب نفسه المقري حيث يعدد كثيرا من رجالات المدرسة الأندلسية حينما يقول: " وأما كتب النحو فلأهل الأندلس من الشروح على الجمل ما يطول ذكره، فمنها: شرح ابن خروف، ومنها شرح الرندي، ومنها شرح شيخنا أبي الحسن بن عصفور الإشبيلي، وإليه انتهى علم النحو، وعليه الإحالة الآن من المشرق إلى المغرب..."^{٢٩} ويقول أيضا: " ...وهل لكم في النحو مثل أبي محمد بن السيد وتصانيفه، ومثل ابن الطراوة، ومثل أبي علي الشلوبين الذي بين أظهرنا الآن، وقد سار في المشارق والمغرب ذكره؟..."^{٣٠}

^{٢٦} - أبو حيان، التذليل والتكميل، دار الكتب المصرية، ج ٥، ص ١٦٨، وانظر خزانة الأدب، ج ١، ص ١٠.

^{٢٧} - السيوطي، بغية الوعاة، تحقيق (محمد أبو الفضل إبراهيم)، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، دون تاريخ، ج ١، ص ٢٨٢.

^{٢٨} - راجع " مقدمة ابن خلدون "، طبعة الحلبي، ١٩٦٠، ص ٢٩٤.

^{٢٩} - نفح الطيب، ج ٧، ص ١٨٠.

^{٣٠} - نفسه، ص ١٨٢.

وواقع الأمر أن هذه المحطات التي وقفتُ عندها لدى كل من الزبيدي وأبي حيان والمقري ما هي إلا غيض من فيض يسير في اتجاه إثبات وجود مذهب أندلسي في النحو العربي.

لذلك، ليس من قبيل الصدفة أن يجذو حذوهم جمهرة غفيرة من الباحثين المحدثين الذين يعترفون بدورهم باستقلال الأندلسيين بمذهب نحوي.

ومن هؤلاء نجد كلا من الدكتور أمين السيد والدكتور عبد القادر رحيم الهيتي - كما سبقت الإشارة إلى ذلك - يؤكدان وجود مذهب نحوي أندلسي ويفتدان عكس ذلك بالدليل والبرهان، وأنخل جنثالث بالنتيجة الذي كتب فصلا عن المذهب الأندلسي^{٣١}، وعنوانه ب "أوائل النحويين الأندلسيين: الزبيدي، أبو علي الشلويني، ابن مالك، أبو حيان"، والأستاذ أحمد أمين الذي أثبت ذلك أيضا^{٣٢}، ومثله كان موقف الأستاذ حسن حسين الزيات حينما صرح بوجود مذهب أندلسي في معرض حديثه عن المدرستين البصرية والكوفية، فقال: "ونشأ مذهب البغداديين خليطا من المذهبين، كما نشأ مذهب الأندلسيين حينما عبر النحو إلى الأندلس"^{٣٣}.

وفي الاتجاه نفسه سار موقف الدكتور شوقي ضيف في كل من "المدارس النحوية" ومقدمة تحقيقه لكتاب "الرد على النحاة"؛ إذ يخصص في الأول فصلا كاملا للحديث عن المدرسة الأندلسية^{٣٤} من حيث التعريف بها وأقطابها ونشاطها النحوي، ويعترف صراحة في الثاني بوجود مذهب نحوي للأندلس^{٣٥}.

٣١ - راجع "تاريخ الفكر الأندلسي"، بالنتيجة، طبعة النهضة العربية، القاهرة، ١٩٥٥، ص ١٨٥ - ١٨٦.

٣٢ - راجع "تاريخ الإسلام السياسي"، حسن إبراهيم، طبعة النهضة المصرية، ١٩٦٥، ج ٣، ص ٩١ - ٩٨.

٣٣ - حسن حسين الزيات، تاريخ الأدب العربي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ص ٣٦٥.

٣٤ - شوقي ضيف، المدارس النحوية، ص ٢٨٨.

٣٥ - انظر مقدمة "الرد على النحاة"، تحقيق شوقي ضيف، طبعة القاهرة، ١٩٤٧.

وعلى درب هؤلاء سار سعيد الأفغاني في كتابه " في أصول النحو " حيث أشاد بالنحاة الأندلسيين وجهودهم في النهضة العلمية بالأندلس ، وأعلن صراحة عن ثبوت وجود مذهب نحوي لهم، فقال: " عكف علماء الأندلس إذاً وطلابه على كتب البصريين والكوفيين فدرسوها واختاروا منهما، وتكوّن لهم مذهب خاص كانوا فيه إلى مذهب البصريين أميل، وكذلك كان أكثر العلماء الوافدين عليهم من المشرق أو النازحين إليه منهم لطلب العلم. وهكذا كان رأس العلوم عندهم النحو والشعر."^{٣٦}

كما أنه قد حلا له استشارة الأرقام - مثلما يقول - فعمد إلى " بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة " للسيوطي، فأحصى ما فيه من تراجم فإذا هو نحو من (٢٤٥٠) ترجمة لعلماء من جميع الأقطار الإسلامية بين الصين وبحر الظلمات، ووجد للأندلسيين بينها نحو من (٧١٢) ترجمة، وهذه نسبة عالية جدا أن يبلغ في هذا المصدر عدد علماء هذا القطر القليل المساحة قريبا من ثلث عدد علماء العالم الإسلامي كله^{٣٧}.

ويجهد يسير في تصفح الأعمال العلمية التي تناولت جانب النحو في الأندلس، فإننا سنجد قائمة طويلة من المؤيدين^{٣٨}، منهم: مهدي المخزومي، وطه الراوي، والشيخ الطنطاوي، وخديجة الحديثي، ولطفي عبد البديع، وأحمد مختار عمر، وأميرة توفيق. وأما غيرهم من المغاربة فحدّث ولا حرج، أبرزهم علال الفاسي في محاضراته

^{٣٦} - سعيد الأفغاني، في أصول النحو، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، ١٩٩٤، ص ٢٣٣.

^{٣٧} - سعيد الأفغاني، من تاريخ النحو، دار الفكر، دون تاريخ، ص ٩٩ - ١٠٠.

^{٣٨} - انظر " مدرسة الكوفة " للمخزومي، و" نظرات في اللغة والنحو " لطفه الراوي، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٦٢، و" نشأة النحو " للشيخ الطنطاوي، طبعة القاهرة، ١٩٦٩، و" أبو حيان النحوي " لخديجة الحديثي ص ٣١٢، و" الإسلام في إسبانيا " للدكتور مصطفى عبد البديع، طبعة القاهرة، ١٩٦٩، ص ٧٤، و" البحث اللغوي عند العرب " للدكتور أحمد مختار عمر، طبعة القاهرة، ١٩٧١، ص ١٠٧، و" نظرية ابن مضاء في تفسير النحو العربي " وأميرة توفيق، رسالة ماجستير، آداب القاهرة، ص ٥٥ - ٥٦.

التي ألقاها بإيران "سيبويه" والمدرسة الأندلسية المغربية في النحو"^{٣٩}، والدكتور مصطفى بن حمزة في مقدمة تحقيقه لكتاب "الحلية" لابن عنتره^{٤٠}.

هذا عن المؤيدين، فأما المعارضون فيتزعمهم الأستاذ سعيد الأفغاني الذي أثلج صدرنا بموقفه السابق في كتابه "في أصول النحو" إلا أنه سرعان ما تراجع عن رأيه في كتابه "من تاريخ النحو" بعد سبعة عشر عاما من تأليف الكتاب الأول. وقد بنى موقفه المتذبذب هذا على مجموعة من الأسباب، أولها:

- ليس لآراء الأندلسيين سمات مدرسة خاصة، وذلك حينما يقول: "لا يخطئ دارس مطولات النحو أن يقع على آراء لأندلسيين في جزئيات نحوية، فأسماء ابن خروف (٦٠٩هـ) وابن عصفور (٥٩٧ - ٦٦٣هـ) والشلوبيني (٥٦٢ - ٦٤٥هـ) وابن الضائع (٦٨٠هـ) وغيرهم، تذكر بين أسماء النحاة المشاركة حين عرض الآراء في الخلاف، إلا أن متصفحها لا يجد فيها ما يميزها من غيرها من التحريجات المختلفة المعروضة في القضية الواحدة أو بعبارة أخرى: ليس لآراء الأندلسيين هؤلاء سمات مدرسة خاصة"^{٤١}.

ولكن، لم لم يتحدث هذا الرجل نفسه عن مدرسة الكوفة مع أن ما جاءت به لم يتعد التوسع في الرواية وذلك عن طريق الأخذ بالمثل الواحد والتفعيد عليه والاستشهاد بالقراءات القرآنية الشاذة أحيانا؟! وما الجديد الذي جاءت به المدرسة البغدادية؟! ألم تكتف بالاختيار من آراء البصريين والكوفيين تارة، والتوفيق بين هذه الآراء تارة أخرى؟! وما الذي ميّز المدرسة المصرية عن بقية المدارس الأخرى؟! ألم تنهض على أكتاف بعض العلماء الأجلاء الأندلسيين كابن مالك وأبي حيان؟!!

^{٣٩} - علال الفاسي، ثلاث محاضرات في إيران، إعداد وإخراج: عبد الرحمان بن العربي الحريشي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، ٢٠٠١، ص ١٤٣.

^{٤٠} - راجع مقدمة تحقيق د. مصطفى بن حمزة لكتاب "الحلية" لابن عنتره، ج ١، ص ٦٥.

^{٤١} - من تاريخ النحو، ص ١٠٠.

إن مثل هذه التساؤلات لثُمِيط اللثام عن حقيقة واضحة مشعة وهي: للأندلس مذهب في علم النحو العربي.

ثانياً: إن سعيد الأفغاني ينفي أندلسية ابن مالك وأبي حيان^{٤٢}، ودليله في ذلك أمران:

أولهما: أنهما رحلا صغيرين إلى المشرق، يقول الأستاذ سعيد الأفغاني: " فابن مالك خرج من الأندلس إلى المشرق صغيراً... وأمرُ أبي حيان قريب من أمر ابن مالك: خرج من الأندلس هارباً في شببته "٤٣.

وثانيهما: أن أكثر تعليمهما كان بالمشرق ولم يكن بالأندلس، وذلك حينما يقول: " فلم يذكروا لابن مالك شيخاً في النحو غير الشلوبين، قالوا: إنه قرأ عليه نحواً من ثلاثة عشر يوماً...، وأبو حيان قرأ على بعض شيوخ الأندلس ثم أتمّ قراءته وزاول الإقراء في المغرب والشرق "٤٤.

والحقيقة أن كلامه هذا لا يبنى على أدلة قوية دامغة، إذ سرعان ما ستبطل نتائجه هذه حينما يتعهدنا الواحد منا بالدحض والتفنيد من خلال البرهان والدليل.

وإذا نحن أعدنا النظر صحبة الدكتور الهيتي في كلام الأفغاني فسنجد ألا دليل على رحيل ابن مالك وأبي حيان صغيرين إلى المشرق؛ لأن ابن مالك (المولود عام ٦٠٠ هـ) رحل إلى المشرق وقد تجاوز عمره العشرين عاماً، فرحلته الشهيرة إلى المشرق قُدرت ما بين سنتي ٦٢٥ هـ و ٦٣٠ هـ، أي كان عمره حينذاك ما بين خمس وعشرين إلى ثلاثين سنة^{٤٥}، ومثل هذا العمر لا يجعلنا نحكم على صاحبه بأنه كان صغيراً.

٤٢ - راجع " خصائص مذهب الأندلس النحوي خلال القرن السابع الهجري "، عبد القادر رحيم الهيتي، ص ٤٩.

٤٣ - سعيد الأفغاني، " تاريخ النحو "، ص ١٠٠-١٠١. بتصرف.

٤٤ - المصدر نفسه بتصرف.

٤٥ - انظر مقدمة " تسهيل الفوائد "، ابن مالك، طبعة دار الكاتب المصري، تحقيق محمد كامل بركات، القاهرة ص ٥، وانظر مجلة العربي الكويتية، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٩٨٧، عدد ١٦٦، ص ١٣٢.

والشيء نفسه ينطبق على أبي حيان المولود عام ٦٥٤ هـ^{٤٦}؛ فقد روى المقرئ أنه قد غادر الأندلس سنة ٦٧٨ هـ أو ٦٧٩ هـ أي أن عمره آنذاك كان حوالي أربعة وعشرين عاما أو أكثر^{٤٧}. أما الادعاء بأن أكثر تعليمهما كان بالمشرق فباطل بالأدلة التالية:

- تثبت المصادر لابن مالك شيخا أندلسيا إلى جانب الشلوبيين، وهو ثابت بن خيار^{٤٨} الذي كان مشهورا بإقرائه القرآن والنحو والعربية ببيان وبغرناطة، كما أنه قرأ كتاب سيبويه على أبي عبد الله بن مالك المرشاني. وتوفي بغرناطة سنة ٦٢٨ هـ^{٤٩}.

- وأما أبو حيان فلقد كان له شيوخ أندلسيون عديدون، من ذلك ما أفصح عنه أبو حيان نفسه حينما قال: "ومن أخذت عنه من النحاة أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الرحمان الخشني الأبدلي، وأبو الحسن علي بن محمد بن علي بن يوسف الكتامي بن الضايغ، وأبو جعفر أحمد بن يوسف بن علي بن يوسف الفهري اللبلي،...وجملة الذين سمعت منهم - نحو أربعمئة شخص وخمسين، وأما الذين أجازوني فعالم كثير جدا من أهل غرناطة ومالقة وسبتة وديار إفريقيا..."^{٥٠}، وكل هؤلاء الشيوخ أندلسيون.

إضافة إلى ذلك، لم تتحدث المصادر عن تعلم أبي حيان بالأندلس فقط وإنما عن مزاولته نشاط الإقراء والتعليم هنالك أيضا، ودليله قول الأفغاني: "خرج من الأندلس هاربا في شببته، وكان قرأ على بعض شيوخها، ثم أتم قراءته وزاول الإقراء في المغرب والشرق"^{٥١}.

^{٤٦} - السيوطي، بغية الوعاة، ج ١، ص ٢٨٠ - ٢٨٣.

^{٤٧} - المقرئ، نفح الطيب، ج ٣، ص ٣٤١.

^{٤٨} - أبو حيان، التذليل والتكميل، ج ٥، ص ١٦٩.

^{٤٩} - راجع "نفح الطيب"، ج ٧، ص ٢٨٥.

^{٥٠} - ابن تغري بردي، المنهل الصافي، دار الكتب، ج ٣، ص ٣٢٣.

^{٥١} - الأفغاني، من تاريخ النحو، ص ١٠١.

هكذا إذن، نصل إلى أن ابن مالك وأبا حيان علمان أندلسيان بارزان في علم النحو العربي. وهذه نقطة أولى لإثبات وجود مذهب نحوي أندلسي في النحو العربي.

ثالثا: يعتقد الأستاذ سعيد الأفغاني أن قضية الاستشهاد بالحديث ليست أندلسية وإنما هي مشرقية، يقول: " فنزعة الاحتجاج بالحديث مشرقية قديمة، وإنما سار ابن مالك وابن خروف سيرة من قبلهما من الأئمة المتبوعين في المشرق "°².

وما فات الأستاذ الأفغاني أن ينتبه إليه هو أن الأندلسيين هم الذين أكثروا من الاستشهاد بالحديث؛ إذ الثابت أن المشاركة كانوا يلجؤون إلى هذه الظاهرة في النادر القليل.

رابعا: لا يوجد بين الأندلسيين من تابع القول بفساد القياس الذي نادى به ابن حزم. يقول الأفغاني: "... ومع أني لا أعقل نحو لا قياس فيه، وددت لو تضافر بعد ابن حزم نحاة حاولوا أن يتركوا لنا مخططا كاملا لنحو (ظاهري) لا قياس فيه ولا تعليل...، ولو حاول أحد من الأندلسيين البناء على الأساس الذي ألقاه ابن حزم لصحّ أن يكون من ذلك مذهب أندلسي إلى حد ما "°³.

والأفغاني بهذا الكلام إنما يقرر أنه إذا وُجد من يُبطل العلل، وُجد مذهب نحوي للأندلس.

ومن اليسير التمثيل بابن مضاء وأبي حيان في هذا الموضوع، فكلاهما نادى بإبطال العلل؛ فأما الأول منهما فموقفه واضح في كتابه " الرد على النحاة "، وأما الثاني فالثابت عنه أنه كان ينفر كثيرا من العلل°⁴، ويقول عنها: " هذه تعاليل... لا حاجة إليها "°⁵، وأيضا "هذه تعاليل لا منفعة فيها"°⁶.

°² - نفسه، ص ١٠١.

°³ - نفسه، ص ١٠٢ - ١٠٤ بتصرف.

°⁴ - راجع " أبو حيان النحوي "، خديجة الحديثي، ص ٣٩١، وثلاث محاضرات في إيران للزعيم علال الفاسي، ص

وهكذا نصل إلى أن ابن مالك وأبا حيان أندلسيان بامتياز، وهما بحق رجالان عظيمان كان لهما الدور الخطير في خدمة لغة القرآن ، وبذلك يصح أن نقول بفخر: للأندلسيين مذهب في علم النحو العربي.

المصادر والمراجع

- ١ - أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة. أحمد مكّي الأنصاري. المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب. القاهرة. ١٩٦٤.
- ٢ - أبو حيان النحوي. خديجة الحديثي. مكتبة النهضة. بغداد. ١٩٦٦.
- ٣ - الاتجاهات النحوية في الأندلس. د. أمين السيد. دار العلوم. دون تاريخ.
- ٤ - أثر المدرسة البصرية في النحو الأندلسي. رسالة دكتوراه. منى أحمد الحسين كرار. ٢٠١٢.
- ٥ - الارتشاف. أبو حيان. دار الكتب المصرية. دون تاريخ.
- ٦ - الإسلام في إسبانيا. الدكتور مصطفى عبد البديع. طبعة القاهرة. ١٩٦٩.
- ٧ - البحث اللغوي عند العرب. الدكتور أحمد مختار عمر. طبعة القاهرة. ١٩٧١.
- ٨ - بغية الوعاة. السيوطي. تحقيق (محمد أبو الفضل إبراهيم) المكتبة العصرية. صيدا. بيروت. د.ت.
- ٩ - تاريخ الأدب العربي. ذ. حسن حسين الزيات. دار نُهضة مصر للطباعة والنشر. د.ت..
- ١٠ - تاريخ الأدب العربي. كارل بروكلمان. إشراف د. محمود فهمي حجازي. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٩٣ م.

^{٥٥} - التذييل والتكميل، ج ١، ص ٣٨.

^{٥٦} - أبو حيان ، الارتشاف، دار الكتب المصرية، ص ٥٥.

- ١١ - تاريخ الإسلام السياسي. حسن إبراهيم. طبعة النهضة المصرية. ١٩٦٥.
- ١٢ - تاريخ الفكر الأندلسي. بالنشيا. طبعة النهضة العربية. القاهرة. ١٩٥٥.
- ١٣ - التذليل والتكميل. أبو حيان. دار الكتب المصرية. دون تاريخ.
- ١٤ - تسهيل الفوائد. ابن مالك. تحقيق محمد كامل بركات. ط دار الكاتب المصري. القاهرة. د.ت
- ١٥ - ثلاث محاضرات في إيران للزعيم علال الفاسي. إعداد وإخراج: عبد الرحمان بن العربي الحريشي. مطبعة النجاح الجديدة. الدار البيضاء. المغرب. الطبعة الأولى. ٢٠٠١.
- ١٦ - الحلية. ابن عنترة. تحقيق د. مصطفى بن حمزة. منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. الرباط. ط ١. ٢٠٠٥.
- ١٧ - خزائن الأدب. البغدادي. تحقيق عبدالسلام محمد هارون. مكتبة الخانجي. القاهرة. ط ٤. ١٩٩٧.
- ١٨ - خصائص مذهب الأندلس النحوي خلال القرن السابع الهجري. د. عبد القادر رحيم الهيتي. منشورات جامعة قان يونس. بنغازي. الطبعة الثانية. ١٩٩٣.
- ١٩ - دروس في المذاهب النحوية. عبده الراجحي. دار المعرفة. الإسكندرية. ١٩٩٢.
- ٢٠ - الرد على النحاة. تحقيق شوقي ضيف. طبعة القاهرة. ١٩٤٧.
- ٢١ - شذا العرف في فن الصرف. الشيخ أحمد الحملاوي. مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر. الطبعة ١٦. ١٩٦٥.
- ٢٢ - طبقات النحويين واللغويين. الزبيدي. تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم. دار المعارف. القاهرة. ١٩٨٤.

- ٢٣ - المدارس النحوية. حديجة الحديثي. دار الأمل. الأردن. الطبعة الثالثة. ٢٠٠١.
- ٢٤ - المدارس النحوية. شوقي ضيف. دار المعارف. القاهرة. الطبعة التاسعة. ٢٠٠٥.
- ٢٥ - المدارس النحوية: أسطورة وواقع. إبراهيم السامرائي. دار الفكر. الطبعة الأولى. ١٩٨٧.
- ٢٦ - المدارس النحوية بين التصور والتصديق والسؤال الكبير. د عبد الأمير محمد أمين الورد. المكتبة العصرية. بغداد. الطبعة الأولى. ١٩٩٧.
- ٢٧ - مدرسة البصرة النحوية، نشأتها وتطورها. عبد الرحمان السيد. دار المعارف. مصر. دون تاريخ.
- ٢٨ - المدرسة البغدادية في تاريخ النحو العربي. محمود حسيني محمود. مؤسسة الرسالة. بيروت. دار عمار. الطبعة الأولى. ١٩٨٦.
- ٢٩ - مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو. مهدي المخزومي. طبعة بغداد. ١٩٥٥.
- ٣٠ - الفهرست. ابن النديم. المطبعة الرحمانية. القاهرة. الطبعة الثالثة. دون تاريخ.
- ٣١ - في أصول النحو. سعيد الأفغاني. مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية. ١٩٩٤.
- ٣٢ - القاموس المحيط للفيروزبادي - مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة. بيروت. الطبعة الثالثة. ٢٠٠٩.
- ٣٣ - لسان العرب. ابن منظور. شرح عبد الله علي كبير وآخرين - دار صادر. بيروت. ط ٢. ١٩٩٠.
- ٣٤ - مقدمة ابن خلدون. طبعة الحلبي. ١٩٦٠.
- ٣٥ - من تاريخ النحو. سعيد الأفغاني. دار الفكر. دون تاريخ.
- ٣٦ - المنهل الصافي. ابن تغري بردي. دار الكتب. د.ت.

٣٧ - نزهة الألباء في طبقات الأدباء. الأنباري. تحقيق د. إبراهيم السامرائي، ط ١. مطبعة المعارف. بغداد.

.١٩٥٩

٣٨ - نشأة النحو. الشيخ الطنطاوي. طبعة القاهرة. ١٩٦٩.

٣٩ - نظرات في اللغة والنحو. طه الراوي. منشورات المكتبة الأهلية. بيروت. الطبعة الأولى. ١٩٦٢.

٤٠ - نظرية ابن مضاء في تيسير النحو العربي. أميرة توفيق. رسالة ماجستير. آداب القاهرة.

٤١ - نفع الطيب. المقرئ. تحقيق إحسان عباس. دار الأبحاث. الطبعة الأولى. ٢٠٠٨.

المجلات:

مجلة العربي الكويتية. دار الفكر. الطبعة الأولى. ١٩٨٧. عدد ١٦٦.